الأغنية الشعبية في الجنوب التونسي:
من التعبير الشفهي إلى التوثيق التراثي

الأستاذ الدكتور عبد السلام الفيتوري
باحث في التاريخ والآثار والتراث
وأستاذ متعاقد جامعة قابس
المغرب

الملخص

تُعدّ الأغنية الشعبية في الجنوب التونسي إحدى أهم أشكال التعبير الفني التي تعكس وجدان الشعوب وتوثّق تراثها الثقافي والاجتماعي. فهي ليست مجرد كلمات تُغنّى وألحان تُردّد، بل هي سجلّ حيّ لذاكرة الأمة، تنقل حكاياتها ومعتقداتها وأفراحها وأحزانها من جيل إلى آخر. نشأت الأغنية الشعبية بين الناس البسطاء في الجنوب التونسي، فعبّرت عن واقعهم اليومي بلغتهم الخاصة وبأسلوب يجمع بين البساطة والعمق. ومع مرور الزمن، أصبحت الأغنية الشعبية مرجعًا تاريخيًا يوثّق مراحل التحوّل في المجتمع، ويجسد القيم والعادات والتقاليد المتوارثة. كما حافظت على مكانتها رغم تطور الموسيقى الحديثة، لأنها تعبّر بصدق عن هوية الشعب وعمق انتمائه الثقافي. إنّ الأغنية الشعبية في الجنوب التونسي، بما تحمله من أصالة ودفء، تظلّ صوت التراث الذي يربط الماضي بالحاضر، ويؤكد أنّ الفن الشعبي هو نبض الأمة وذاكرتها الحيّة.

Summary:

The folk song in southern Tunisia is one of the most important forms of artistic expression that reflect the spirit of the people and document their cultural and social heritage. It is not merely words sung or melodies repeated, but rather a living record of the nation's memory, conveying its stories, beliefs, joys, and sorrows from one generation to the next. The folk song emerged among ordinary people in **southern Tunisia**, expressing their daily realities in their own language and in a style that combines simplicity with depth. Over time, the folk song became a historical reference that documents the stages of social transformation and embodies the values, customs, and traditions passed down through generations.

Despite the development of modern music, it has maintained its place because it sincerely expresses the identity of the people and the depth of their cultural belonging. The folk song in southern Tunisia, with all its authenticity and warmth, remains the voice of heritage that connects the past with the present and affirms that popular art is the heartbeat of the nation and its living memory.

المقدمة

لقد حظي التراثُ بأنواعه المختلفة؛ الشعبي، والأسطوري، والتاريخي، والأدبي، باهتمام كبير من الدارسين، لما تركه من بصمةٍ واضحةٍ في الأدب شعراً ونثراً. فلم يعد التراث مقتصراً على ما خلّفه الأوّلون للآخرين، بل غدا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالسلوك الإنساني والحياة الحضارية للأفراد والجماعات. وأصبح يُعدّ مخزونًا غنيًّا يعود إليه الشاعر والأديب ليستلهم منه طاقاته الكامنة ويُغني تجربته الإبداعية. فالتراث مادة حيّة وشعبية ثرية، تحمل في طيّاتها شتّى الألوان التعبيرية الأصيلة، مثل الأمثال الشعبية، والأغاني التراثية، والعادات والتقاليد التي تشكّل هوية المجتمع وروحه الثقافية.

فهذا التراث هو ذلك المخزون الواسع الذي يشمل جميع الجوانب المتعلقة بالإنسان سواء أكان ملموسا أم غير ملموس، والتراث كائن حي يعيش فينا إذ ينعكس صُوره على شكل تعابير شعبية يعبر عنها بالرقص والغناء و الأهازيج... في مختلف الاحتفالات الشعبية. ويعد التراث الشعبي أيضا مستودع يمكن أن نستمد منه الكثير من البواعث، والمنطلقات الحضارية والنفسية والروحية، التي تحفز طاقتنا الجديدة لتصب في مجرى الإبداع، فهو محفز المجتمعات الشعبية على الاستمرار، والتواصل لما يزخر به من الألوان الشعبية بما فيها الأساطير، الحكايات الشعبية، السير، الملاحم، الأمثال وكذلك العادات والتقاليد والفنون الشعبية" فالتـــراث هو مصطلح شامل نطلقه لنعني به عالما متشابكا من الموروث الحضاري، والبقايا السلوكية والقولية والفنون الاستعراضية، والصناعات الحرفية التي بقيت عبر التاريخ[1]

يعتبر الأدب الشعبي من أهم الوسائل التعبيرية التي تعكس البيئة المجتمعية من حيث قدرته على تصوير الحياة الطبيعية والتاريخية والدينية والثقافية بصورة بسيطة عنه وبلغة محلية منتقاة من مختلف الطبقات الاجتماعية معبرة بذلك عن آمال الشعوب ، ّ ومواجعها وبطولاتها"[2] فهي الأرشيف الذي يحفظ لها كل ذلك وقد تعددت أساليب التعبير فيه إلى أشكال نثرية وشعرية يشترك فيها لإبداع والتصوير الجمالي الخالص، والأدب الشعبي عبر بدوره بصورة فنية وجميلة وصادقة عن ثقافة وحياة شعوب المغرب العربي بكل أشكاله التعبيرية الغنية.

فالأدب الشعبي هو المخزون الثقافي والمتوارث من قبل الأجداد، والمشتمل على القيم الدينية والتاريخية والحضارية والشعبية، بما فيها من عادات وتقاليد سواء كانت هذه القيم مدونة في التراث أم مبثوثة بين سطورها، أو متوارثة أو مكتسبة بمرور الزمن وبعبارة أكثر وضوحا: إن التراث هو روح الماضي وروح الحاضر وروح المستقبل بالنسبة للإنسان الذي يحيا، وتموت شخصية وهويته إذا ابتعد عنه، سواء في أقواله أو أفعاله لذلك يعتبر الأدب الشعبي من أهم الوسائل التعبيرية التي تعكس البيئة المجتمعية من حيث قدرته على تصوير الحياة الطبيعية والتاريخية والدينية والثقافية بصورة بسيطة عنه وبلغة محلية منتقاة من مختلف الطبقات الاجتماعية معبرة بذلك عن آمال الشعوب ، ّ ومواجعها وبطولاتها"[3] فهي الأرشيف الذي يحفظ لها كل ذلك وقد تعددت أساليب التعبير فيه إلى أشكال نثرية وشعرية يشترك فيها لإبداع والتصوير الجمالي الخالص، والأدب الشعبي عبر بدوره بصورة فنية وجميلة وصادقة عن ثقافة وحياة شعوب المغرب العربي بكل أشكاله التعبيرية الغنية.

"الأغنية الشعبية ليست مجرد لحنٍ يتغنى به الناس في أفراحهم ومناسباتهم، بل هي سجلٌّ حيّ لذاكرة الشعوب وصوتٌ ناطق بتراثها الإنساني العريق."[4] فهي تعبّر بصدق عن وجدان الجماعة، وتختزن بين كلماتها وأنغامها خلاصة التجارب الإنسانية التي عاشها الأجداد في مختلف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. في الأغنية الشعبية نلمس نبض الحياة اليومية للناس البسطاء؛ نسمع أصوات الفلاحين

---

[1] خورشيد، (فاروق)، **الموروث الشعبي**، دار الشروق الطبعة الأولى، لبنان، 1992، ص12.

[2] آيلة أبي نادر: التراث والمنهج بين أركون والجابري، الشركة العربية للأبحاث للنشر، ط1 ، بيروت ، لبنان، 2007. ص68

[3] إبراهيم، (نبيلة)، **قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية**، دار غريب للطباعة والنشر، الطبعة الاولى 1992، ص.18

[4] المرزوقي، (محمد)، **الأدب الشعبي في تونس**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1967، ص 42

في الحقول، وصيحات البحارة في عرض البحر، وأنين العمال في المصانع، وضحكات الأطفال في الحارات القديمة. إنها تنقل لنا صوراً نابضة من حياة المجتمع بكل تفاصيله، وتوثّق لحظات الفرح والحزن، النضال والأمل، الحب والفقد.

كما تُعدّ الأغنية الشعبية وسيلةً فعّالة للحفاظ على الهوية الثقافية في وجه التغيّرات المتسارعة التي يعرفها العالم الحديث. فهي تحفظ اللغة المحلية بلهجاتها المختلفة، وتنقل الأمثال والحكم الشعبية التي تحمل خلاصة حكمة الأجداد، وتخلّد الإيقاعات والألحان التي ميّزت كل منطقة أو قبيلة. وبهذا المعنى، تمثل الأغنية الشعبية ذاكرة صوتية تُعيد إلينا صدى الماضي، وتربط الأجيال الجديدة بجذورها الأصلية.

هل ما زالت الأغنية الشعبية قادرة على أداء دورها كصوت للتراث وذاكرة للأمة في عصر السرعة والتكنولوجيا؟

كيف توازن الأغنية الشعبية بين الأصالة والتجديد دون أن تفقد قيمتها التراثية وهويتها الثقافية؟

I. الأغنية الشعبية كمرآة لهوية الشعوب وذاكرتها الجماعية

1. الأغنية الشعبية في الجنوب التونسي ومكانتها ضمن المنظومة الثقافية الشعبي.

تعدّ الأغنية الشعبية في الجنوب التونسي أحد أبرز مكونات الثقافة الشعبية، فهي التعبير الفني الأصدق عن روح الجماعة ووجدانها، تنبع من أعماق الحياة اليومية للناس، وتعكس بصدق مشاعرهم وأفكارهم وطموحاتهم. ليست الأغنية الشعبية مجرد ترفٍ فني أو تسلية، بل هي شكل من أشكال التعبير الثقافي الذي يوحّد أفراد المجتمع حول قيم مشتركة ويجسد هويتهم الجماعية. ومن خلال كلماتها البسيطة وإيقاعاتها الأصيلة، استطاعت أن تحافظ على ملامح الذاكرة الشعبية، وأن تكون مرآةً لثقافة الشعوب ومرجعاً مهماً لفهم تاريخها الاجتماعي والحضاري.

ولذلك فالأغنية الشعبية في الجنوب التونسي لم تنشأ من أجل المطالب الاستمتاعية أو لتضييع الوقت وملء الفراغ، وإنما جاءت كضرورة اجتماعية أسهمت بإيجاد علاقات العمـــل والإنتـــاج والحاجة الروحية والنفسية للإنسان. البدوي " فإن الغناء الجماعي كان من أرقي أنواع الموسيقي في اعتقاد اليونان وقد أكسبوا هذا النوع عمق الفلسفة، وتعقيد التركيب وهما الصفتان اللتان أخذتا تجدان لهم مكانا في السمفونية والمقطوعات الموسيقية وكان كل احتفال سواء بحصاد أم بنصر أم بيوم مقدس"[5] لذلك فالأغنية الشعبية بمثابة تلك النافذة التي من خلالها يمكن الكشف عن الحالة النفسية والاجتماعية للفرد أو الجماعة.فالأغنية الشعبية ثرية ومعبرة، ونتاجا للشعوب عبر حقب زمنية متعاقبة فأنها كانت حاملة لعدة دلالات رمزية ومعان تتحدد من خلالها الهوية الثقافية للمجتمع البدوي.

كذلك يمكن القول" إن الأغنية الشعبية هي تعبير مباشر وصادق عن الممارسات اليومية للحياة، فهي تنبع من قلب الواقع الاجتماعي وتعكس بصورة فنية ما يعيشه الناس من تجارب وتفاعلات داخل مجتمعهم."[6] لذلك لم تكن الأغنية الشعبية مجرد وسيلة للترفيه، بل أصبحت موضوعاً مهماً للبحث والدراسة من قِبل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا لما تحمله من دلالات ثقافية عميقة تكشف طبيعة العلاقات الإنسانية وأنماط التفكير والسلوك داخل الجماعة. فمن خلال تحليل نصوص الأغاني الشعبية يمكن التعرف على القيم التي يقدّرها الناس، مثل الشجاعة والكرم والحب والوفاء، وكذلك على التحديات التي تواجههم، كالفقر أو الغربة أو الظلم.

كما يرى الباحثون أن الأغنية الشعبية تمثل وثيقة اجتماعية حيّة تسجل تحولات المجتمع عبر الزمن، فهي ترصد التغيرات في أنماط العيش والعلاقات بين الأفراد، وتوثّق تفاصيل الحياة اليومية من عادات الزواج والعمل والاحتفالات إلى مواقف الناس من القضايا الكبرى كالوطن والانتماء والحرية. ومن هذا المنطلق، تكتسب الأغنية الشعبية مكانة مركزية في الثقافة الشعبية، لأنها تُجسّد الوعي الجمعي وتعبّر

---

[55] العيد (محمد بلقاسم)، **تأملات في الفكر والثقافة**، مطبعة قطيف شوقي قفصة ،2004، ص12.

[66] البلادي (عاتق بن غيث)، **الأدب الشعبي في الحجاز**، مكتبة دار البيان الطبعة الأولي،1977، ص4.

عن ذاكرة الأمة بطريقة فنية بسيطة ولكنها غنية بالرموز والمعاني. فهي صوت الناس العاديين الذين لا يملكون منابر سياسية أو إعلامية، ومع ذلك استطاعوا عبرها أن يخلّدوا أحاسيسهم وتجاربهم، ويتركوا بصمة واضحة في الموروث الثقافي الإنساني.

لذلك تظل" الأغنية الشعبية إحدى ركائز الثقافة الشعبية، إذ تعبّر عن وجدان المجتمع وتعكس تفاصيل حياته اليومية بعفوية وصدق، وتوثّق العادات والتقاليد والموروث الثقافي الذي يربط الماضي بالحاضر."[7] فهي ليست مجرد فن موسيقي أو وسيلة للترفيه، بل سجل حي للذاكرة الجمعية، يحفظ للهوية الثقافية قيمتها ويمنح الأجيال القادمة فرصة لفهم تراثها الغني واستلهام معانيه في حياتهم اليومية. ومن هنا، تكتسب الأغنية الشعبية بعدًا تربويًا واجتماعيًا، إذ تعمل على تعزيز الانتماء والهوية الوطنية، وتذكّر الإنسان دائمًا بأصوله وجذوره الثقافية العميقة.

2. دور الأغنية الشعبية في حفظ الموروث الاجتماعي والثقافي

تلعب الأغنية الشعبية في الجنوب التونسي دورًا محوريًا في الحفاظ على الموروث الاجتماعي والثقافي للأمم والمجتمعات، فهي ليست مجرد وسيلة للترفيه، بل هي وعاء يحمل بين طياته تاريخ الشعوب وعاداتها وتقاليدها. من خلال الكلمات والألحان، تنقل الأغاني الشعبية قيم المجتمع، وتعكس نمط حياته، وتوثق الأحداث التاريخية والمعارك، بل وحتى المواقف اليومية التي شكلت هوية المجتمع عبر الأجيال. كما أن الأغنية الشعبية تعمل على تعزيز التواصل بين الأجيال، حيث تنتقل من الجدّ إلى الحفيد، فتربط الماضي بالحاضر بطريقة حية وملموسة، وتضمن استمرارية التراث الثقافي والاجتماعي. ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبار الأغنية الشعبية أداة تعليمية وثقافية تحمل رسالة المجتمع، وتساهم في بناء وعي جماعي يحافظ على الانتماء والهوية الثقافية.

أن الأغنية الشعبية في الجنوب التونسي وباعتبارها نتاجا لتلك الذاكرة الجمعية. فأنها كانت بمثابة ذلك المرتكز الذي يقوم عليه وبه مشروع التوثيق والتخزين. ولعلها في فترة ما اعتبرت المصدر الوحيد، الذي نستند إليه في دراستنا لتحديد لنمط عيش المجتمعات الإنسانية. فالأغنية الشعبية هي مرآة للحضارة وهي مرآة صادقة، تقدم سجلا حيا يكشف عن طبيعة عيش الأفراد وقواعد سلوكهم وأنماط حياتهم العملية والفكرية. كذلك يمكن القول في هذا الإطار، ولئن ذهب البعض إلى اعتبار الأغنية الشعبية أنها مجرد تعبير جماعي تطغي عليه معاني السذاجة. ولا يتعدى كونه مجرد تعبيرات شفوية عادة ما تكون، في أغلبها عرضة للخطاء والتغير والتحريف. فإن هذا لا ينفي أنْ الأغنية الشعبية في احتفالات الموقف كانت جزء منا وشرخ من هويتنا وقطعة من وجدنا، لا يمكن إن نتصور تقدما ولا تطورا. دون الحفاظ عليها والتمسك بها.

لذلك تعد لأغنية الشعبية وسيلة فنية وثقافية غنية تسهم في صون التراث الاجتماعي من الضياع، فهي تحمل في طياتها تجارب الناس اليومية، وتعبر عن أفراحهم وأحزانهم وطموحاتهم بأسلوب بسيط وعفوي. ومن خلال تناقلها شفهيًا بين الأجيال، "تحافظ الأغنية الشعبية على لهجة المجتمع المحلية، وتعكس ملامح هويته الثقافية المتنوعة. كما أنها تؤدي دورًا تعليميًا غير مباشر، إذ تنقل القيم الأخلاقية والعادات الأصيلة، وتُرسّخ مفاهيم التعاون والتكافل الاجتماعي."[8] ولا يقتصر تأثيرها على الماضي فحسب، بل تمتد أيضًا إلى الحاضر، إذ تشكّل مصدر إلهام للفنانين والباحثين في مجالات الموسيقى والتراث، مما يجعلها حلقة وصل حية بين الأجداد والأحفاد.

فالأغنية الشعبية في الجنوب التونسي قد تجاوزت المستوي الفني وكونها وسيلة لخلق نوع من الترفيه والمراوحة علي النفس فقد كان لها الدور الكبير في تمكيننا، من معرفة تلك الأنماط المعشية والسلوكية للإنسان البدوي. فالأغنية الشعبية في احتفالات الموقف ترتبط ارتباطا وثيقا وواضحا بالبيئة التي وجدت فيها وبالظروف التي قيلت فيها، الأمر الذي جعلها تتميز بأسلوب خاص تختلف به عن غيرها من الأغاني

[7] عبد الله(محمد عبد الرحمن): **التوطين و التنمية في المجتمعات الصحراوية**، دار المعرفة الجامعية، 1991، ص30

[8] (8)ماهر (صالح):**الأغنية الشعبية والأغنية الدارجة**، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى الأولي ص25.

الشعبية فقد كان الدور الكبير في تمكيننا، من معرفة تلك الأنماط المعشية والسلوكية للإنسان البدوي في مجتمع أهل البادية. فالأغنية الشعبية، كانت بمثابة الحامل لهوية الشعوب. فهي تعد بمثابة الحاضنة لمخزونهم الثقافي.

ما من شك انه ذلك الإبداع المرتبط بما تكتره ذاكرة الإنسان من موروثات فنيّة توارثها عبر مراحل عديدة كذلك تبرز الأغنية الشعبية التنوع الثقافي داخل المجتمع الواحد، إذ تختلف ألحانها وكلماتها باختلاف المناطق والبيئات، لكنها تلتقي جميعها في هدف واحد هو التعبير عن روح الشعب وتجاربه الإنسانية. فهي توثق الحكايات والأساطير الشعبية، وتخلّد أسماء الأبطال والأحداث التي شكّلت الذاكرة الجماعية للأمة. كما تُعد وسيلة تواصل فريدة تجمع بين الأجيال، حيث يتعلم الصغار من الكبار معاني الانتماء والوفاء للأرض والعادات. والتقاليد. كذلك يمكن القول أن الأغنية الشعبية جزءًا أصيلًا من التراث الإنساني الذي يجسد هوية المجتمع وذاكرته الجماعية، فهي تحمل بين ألحانها وكلماتها ملامح الحياة اليومية للناس، وتعكس عاداتهم وتقاليدهم وطرق تفكيرهم. ومن خلال تناقلها عبر الأجيال، تؤدي الأغنية الشعبية وظيفة ثقافية واجتماعية مهمة في الحفاظ على القيم والمعتقدات المتوارثة، كما تساهم في ترسيخ الانتماء إلى المكان والزمان. وتُبرز هذه الأغاني روح الإبداع الشعبي من خلال بساطتها وصدق تعبيرها، فهي نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته، وتعبير صادق عن وجدانه الجماعي. لذلك، تظل الأغنية الشعبية جسراً يصل الماضي بالحاضر، ويحمي ملامح الهوية الثقافية من التلاشي في خضم التحولات الحديثة.

II. الاغنية الشعبية كذاكرة حيّة للشعوب

1) توثيق ملامح الحياة الاجتماعية

يُعَدّ توثيق ملامح الحياة الاجتماعية من أهم الوسائل التي تحفظ هوية المجتمعات وتبرز خصوصيتها الثقافية عبر العصور. فهو لا يقتصر على تسجيل الأحداث أو العادات اليومية، بل يمتد ليشمل أنماط التفكير والعلاقات الإنسانية والقيم التي تحكم سلوك الأفراد داخل المجتمع. ومن خلال هذا التوثيق يمكن للأجيال اللاحقة أن تتعرف على جذور حياتها الاجتماعية، وتدرك مدى تطورها وتأثرها بالتحولات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي شهدتها الأمة.كما يسهم التوثيق في بناء ذاكرة جماعية تعزز الانتماء وتعمق الوعي بتاريخ المجتمع وتجاربه. فهو أداة أساسية لفهم الحاضر واستشراف المستقبل على أسس راسخة من المعرفة والوعي الاجتماعي.

وتلعب هنا الأغنية الشعبية دورا في توثيق الحياة الاجتماعية فهيا قد تجاوزت المستوي الفني وكونها وسيلة لخلق نوع من الترفيه والمراوحة علي النفس فقد كان لها الدور الكبير في تمكيننا، من معرفة تلك الأنماط المعشية والسلوكية للإنسان البدوي".فالأغنية الشعبية ترتبط ارتباطا وثيقا وواضحا بالبيئة التي وجدت فيها وبالظروف التي قيلت فيها، الأمر الذي جعلها تتميز بأسلوب خاص تختلف به عن غيرها من الأنماط الغنائية الأخرى فقد كان لها الدور الكبير في تمكيننا، من معرفة تلك الأنماط المعشية والسلوكية للإنسان البدوي في مجتمع أهل البادية."[9] وذلك تجسد من خلال.إرساء قيم التآخي والتلاحم بين الأفراد للحفاظ على البناء الاجتماعي. أما البناء الثقافي فيكون من خلال الحفاظ على العادات والتقاليد، وإلزام الأجيال الجديدة بالتمسك بها .فالأغنية الشعبية يعتبر موروثا ا يسهم بفعاليّة إيجابية في كشف الدور الحضاري للمجتمع الشعبي، وفي العمل على فهم هذا المجتمع، ومعرفة سلوكه وعاداته وتقاليده وتطلّعاته، ومدى ارتباطه بماضيه، ويقدم ثمرة فكر وعقل قديم، ونتاجاً فكرياً وتربوياً مهماً يؤثّر في تفكير النّاس وتصرفاتهم، ويبين ما يجب أن يتّبع من السلوك، وينوه بأحداث ووقائع تاريخية، وأعمال وذكريات ذات تأثير بعيد في حياة الجماعة، ويعدمن أهم الوسائل التي تدعم التّقاليد، وتبرز القيم والأفكار التي تأخذ بيد الجماعة.

لذلك تلعب الأغنية الشعبية دوراً بارزًا في توثيق ملامح الحياة الاجتماعية، إذ تُعَدّ مرآة صادقة تعكس وجدان الناس ومشاعرهم اليومية وتصور مواقفهم من الأحداث والظروف التي يعيشونها. فهي تسجل تفاصيل الحياة البسيطة، وتعبر عن العادات والتقاليد والمناسبات

[9] (9)الخطيب (محمد)، **المجتمع البدوي**، منشورات دار علاء الدين لنشر والتوزيع والترجمة، سورية الطبعة الاولي سنة 2007 ص 9

الاجتماعية، كما تحفظ اللهجات المحلية وتخلّد الموروث الثقافي للمجتمع. ومن خلال كلماتها وألحانها تنتقل القيم والمعاني من جيل إلى آخر، لتبقى الأغنية الشعبية سجلًّا حيًّا لتاريخ الناس وثقافتهم وأساليب تعبيرهم عن الفرح والحزن والعمل والحب.

كما تُمثل" الأغنية الشعبية وثيقة شفوية تحفظ الذاكرة الجماعية وتعبّر عن روح الانتماء للمكان والبيئة. فهي لا تُغنّى لمجرد الترفيه، بل تؤدي رسالة ثقافية واجتماعية تعكس تطور الوعي الجمعي وتحوّلات المجتمع عبر الزمن."[10]

وفي تجسيدها لطبيعة عيش المجتمع، إنما تأكيد علي إن هذه الألوان الغنائية الشعبية، كانت مرافقة للفرد في البادية في كل تفاصيل حياته و لم ينحصر دورها في المستوي الفني بل اعتبرت، لونا فنيا فريدا من نوعه وذلك بما يحمله من خصوصية، وقيم فكرية وذلك ما يجعله يتميز عن الأنماط الغنائية الأخرى. كذلك يمكن القول أيضا في هذا الإطار إن الأغنية الشعبية ولئن كانت قادرة علي خلق ذلك الترفيه والفرحة عند أهل البادية فهو أدب الطبقات الشعبية ويكشف تفاصيل مشاكل الحياة اليومية وهو مجال لطاقة تفاعلية اجتماعية تشعر فيها الأرواح بالسعادة التي تنسيها كل أشكال الضجر والهموم، وتمكنها من التواصل مع تراث الأجداد واستعادة لحظات من العادات والتقاليد.

إن الأغنية الشعبية مرتبطة بجوهر التجربة الإنسانية في عراقتها، تحمل تطلعات وأفكار وعادات وطبائع كل جيل من الأجيال كما أنها تعد بمثابة فلسفة الإنسان في تعاطيه مع ذاته ومجتمعه وعلاقته بالطبيعة والكون أيضا يمكن أن نشير إلي أن الأغنية الشعبية كانت هي بدورها مكونا من مكونات المجتمع البدوي التقليدي فهيا تجاوزت المستوي الموسيقي الفرجوي المعلوم بل قد مثلت متنفسا عاطفيا في كثير من الحالات النفسية، " وهو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها، ويعزز من ثم احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية"[11]

يمكن القول إن توثيق ملامح الحياة الاجتماعية عن طريق الأغنية الشعبية يُعدّ جسرًا يصل الماضي بالحاضر، ويمنح الأجيال القادمة فرصة للتعرّف على مسيرة مجتمعاتها وتطورها عبر الزمن. فهو لا يحفظ التراث فحسب، بل يساهم أيضًا في ترسيخ الهوية الوطنية وتعزيز الفخر بالانتماء الثقافي. ومن خلال مختلف وسائل التوثيق، سواء كانت الأغنية الشعبية أو العادات والتقاليد أو الفنون المتوارثة، تبقى الحياة الاجتماعية العربية نابضة بالحيوية، شاهدة على أصالة الإنسان وقدرته على التعبير عن ذاته ومجتمعه بطرق متجددة ومبدعة.

2) الأغنية الشعبية بين الذاكرة والتراث

إنّ الأغنية الشعبية ليست مجرّد لحنٍ وكلمات، بل هي وعاءٌ يحتضن ذاكرة الشعوب وهويتها الثقافية. فهي تعكس تفاصيل الحياة اليومية للناس، ومشاعرهم، وآمالهم، وأحزانهم، وتروي قصص الحب والنضال والعمل والفرح والمناسبات الاجتماعية. ومن خلال الأغاني الشعبية، تنتقل العادات والتقاليد والحِكم المتوارثة من جيلٍ إلى جيل، لتغدو جسرًا يربط الماضي بالحاضر، ومرآةً صافية تعكس تراث الأمة وروحها الحيّة.. "إن دراسة الأغنية الشعبية تعني الغوص في أعماق ذاكرة المجتمع، واستكشاف جذور ثقافته، وفهم الطريقة التي حافظ بها الإنسان على هويته عبر الزمن لذلك تعبر الأغنية الشعبية عن كل مناحي الحياة، وهي حلقة متصلة ترتبط بالتقاليـــد والقيم والعادات وتجسد درجة التحضر والتلاحم والتعبير عن ما يجيش تجـــيش بـــه الحياة."[12] كانت بمثابة انعكاس لصورة حياة الفلاح في البادية بين الطابع الاحتفالي والتشبث بالحياة

لذلك تعدّ الأغنية الشعبية أحد أهم المفاتيح لفهم الذاكرة الثقافية والتراث الإنساني للشعوب، إذ تمثل مرآةً صادقة تعكس تفاصيل الحياة اليومية، وتختزن في كلماتها وألحانها خلاصة التجارب الفردية والجماعية على مرّ الأجيال. فهي ليست مجرد نتاج فني بسيط أو وسيلة للترفيه، بل نصّ شفهيّ حيّ يدوّن ما لم تكتبه الكتب، ويحفظ ما قد تندثر معه معالم الوجود الشعبي. ومن خلال الأغنية الشعبية، يتجلى

---

[10] بوسماحة، (عبد الحميد): **الموروث الشعبي في روايات عبد الحميد بن هدوقة**، دار السبيل الجزائر 2007ص، 14.

[11] تيمور (أحمد يوسف)، **جمع وتسجيل وتدوين الأغاني الشعبية**، مجلّة التراث الشّعبي، بغداد، العدد، 3-1977/4،

[12] نصار (حسين)، **الشعر الشعبي العربي**، الطبعة الأولي، منشورات اقرأ، مصر، 1980، الصفحة: 112

التفاعل العميق بين الذاكرة والتراث، فالذاكرة تحفظ التجربة وتعيد إنتاجها في صيغة وجدانية مؤثرة، بينما يمنح التراث تلك التجربة معناها واستمراريتها داخل نسيج الهوية الثقافية.

"إنّ الأغنية الشعبية، بما تحمله من رموز وصور واستعارات، تشكّل سجلًّا عاطفيًا وثقافيًا للحياة في أبعادها المختلفة: من الحب والحنين إلى الأرض، إلى العمل والنضال والاحتفال بالحياة. فهي تنبض بلغة الناس ولهجاتهم، وتستمد قوتها من بساطتها وصدقها، ومن قدرتها على ملامسة الوجدان الجمعي عبر الزمان والمكان."[13] وبهذا المعنى، تغدو الأغنية الشعبية فضاءً تتلاقى فيه الذاكرة الفردية بالذاكرة الجمعية، حيث يتحول الماضي إلى حضورٍ حيّ في وجدان الحاضر، وتستعاد القيم والعادات والتقاليد في كل لحنٍ يُردّد، وفي كل صوتٍ يحمل صدى الأسلاف.

كذلك يمكن القول أيضا إن الأغنية الشعبية لئن كانت قد قدمت لنا صورة عن الحياة في البادية في لحظات احتفالية، أو ضمن ممارسة منعزلة عن الواقع المعاش للإنسان البدوي. فإن هذه الأغنية الشعبية ما يمكن أن نتبينهٌ أنها كانت حاملة لعديد الدلالات، الرمزية وذلك انطلاقا من السياقات التي نزلت فيها كذلك مكنتنا، من معرفة تلك الأنماط المعاشية والسلوكية للإنسان البدوي." تملك الأغنية الشعبية قدرة فريدة على مقاومة الزمن وتجاوز التحولات الاجتماعية والسياسية التي تعصف بالمجتمعات. فهي كائن ثقافي متحوّل، يتكيّف مع الظروف المتجددة دون أن يفقد جوهره الأصيل."[14] ففي حين تغيّرت أنماط الحياة ووسائل التعبير، لذلك ظلّت الأغنية الشعبية محتفظة بروحها، تنتقل من الذاكرة الجماعية إلى المنصات الرقمية، ومن أفواه الجدّات إلى تسجيلات الشباب، وكأنها تؤكد أن الذاكرة لا تموت ما دامت تجد من يرويها بصوتٍ صادق. ومن خلال هذا الامتداد الحيوي، تُثبت الأغنية الشعبية أنّها ليست بقايا ماضٍ ساكن، بل طاقة إبداعية متجددة تفتح أمام المجتمعات نافذة على ذاتها، وتمنحها وسيلة للتعبير عن هويتها في وجه العولمة والتشابه الثقافي.

وهكذا،" تظلّ الأغنية الشعبية أكثر من مجرد موروث فني؛ إنها وعيٌ بالذات الجمعية وتجسيدٌ لذاكرة الأمة في أبهى صورها الشفوية. فهي تحفظ ما عجز التاريخ الرسمي عن تدوينه، وتعيد للحياة اليومية للناس قيمتها الرمزية وعمقها الإنساني. "[15]ومن خلال ما تختزنه من معانٍ وصور وألحان، تستمر الأغنية الشعبية في أداء رسالتها الخالدة: حماية الذاكرة من التلاشي، وإحياء التراث بروحٍ معاصرة تمنح الماضي صوتًا في الحاضر. إنها الدليل على أن الثقافة الحقيقية لا تُقاس بما يُكتب فحسب، بل بما يُغنّى ويتردّد في الوجدان، لأن في كل نغمةٍ منها صدى إنسانٍ كان، وما زال، يبحث عن ذاته في ذاكرة الأرض وصوتها الباقي عبر الزمن.

الخاتمة

تظل الأغنية الشعبية أكثر من مجرد نتاج فني أو تعبير ترفيهي؛ إنها خلاصة التجربة الإنسانية في أنقى صورها، ومرآة تعكس تاريخ الشعوب ومخزونها العاطفي والفكري. فمن خلال كلماتها البسيطة وألحانها الفطرية، استطاعت أن تحفظ ملامح الحياة اليومية، وأن تسجل تفاصيل الزمن في وجدان الجماعة. الأغنية الشعبية ليست نصًّا جامدًا يُروى، بل كائن حيّ يتنفس عبر الأجيال، يتشكل وفقًا لاحتياجات المجتمع وتحوّلاته، لكنه يحتفظ دومًا بجذور أصالته وروح انتمائه.

لقد أدّت الأغنية الشعبية دور المؤرخ الذي لا يكتب بالحبر، بل بالصوت والحنين؛ فهي تحفظ الحكايات التي لم تصلها كتب التاريخ، وتخلّد مشاعر الناس البسطاء الذين صنعوا هوية المكان بعرقهم وأحلامهم. ومن خلالها تتجلى وحدة الإنسان بالأرض، وتنبض العلاقة بين الذاكرة والهوية. وحين نُصغي إليها، لا نسمع فقط إيقاع الدف أو أنين الربابة، بل نسمع وجدانًا جماعيًا يصرخ في وجه النسيان، معلنًا أن للثقافة صوتًا لا يمكن إسكاتُه.و اليوم، حيث تهدد العولمة بطمس الفروق وتذويب الخصوصيات، تبرز الأغنية الشعبية كحصنٍ منيع

---

[13] أيوب (عبد الرحمان)، **رموز ودلالات بالبلاد التونسية**، وزارة الثقافة والشباب والترفيه، وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية، تونس 2003، ص 15

[14](14)الجوهري (محمد)، **علم الفلكلور دراسة في الأنتروبولوجيا الثقافية**، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، 1990، ص338

[15] رشدي (أحمد صالح)، **الأدب الشعبي**، ملتزمة الطبع والنشر الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، لأصحابها حسن محمد وأولاده 9 شارع عدلي باشا القاهرة، 1971، ص14.

يحمي الذات الثقافية من الذوبان، وكجسرٍ يربط بين الماضي والحاضر، بين الجذر والغصن، بين الذاكرة والواقع. إن الحفاظ عليها ليس واجبًا فولكلوريًا فحسب، بل هو فعل مقاومة ثقافية، وإيمان بأن الهوية لا تُصان إلا بما يرويها من أصوات وألحان ومعانٍ متجذّرة في الوجدان الشعبي.وهكذا، تبقى الأغنية الشعبية ذاكرة الشعوب النابضة، وصوت التراث الذي لا يشيخ، تهمس فينا كلما تاهت الأصوات الحديثة: إن الماضي ليس غيابًا، بل حضورٌ دائمٌ في القلب، يغني كي يُذكّرنا بأننا، مهما تغيّرنا، ما زلنا نحمل في أعماقنا نغمة البدايات الأولى.

المصادر والمراجع:

- الخطيب (محمد)، **المجتمع البدوي**، منشورات دار علاء الدين لنشر والتوزيع والترجمة، سورية الطبعة الاولي سنة 2007
- ماهر (صالح):**الأغنية الشعبية والأغنية الدارجة**، وزارة الثقـــــافة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى الأولي.
- إبراهيم، (نبيلة)، **قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية**، دار غريب للطباعة والنشر، الطبعة الاولي 1992،
- آيلة أبي نادر: التراث والمنهج بين أركون والجابري، الشركة العربية للأبحاث للنشر، ط1 ، بيروت، لبنان، 2007.
- أيوب (عبد الرحمان)، **رموز ودلالات بالبلاد التونسية**، وزارة الثقافة والشباب والترفيه، وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية، تونس 2003،
- البلادي (عانق بن غيث)، **الأدب الشعبي في الحجاز**، مكتبة دار البيان الطبعة الأولي،1977،
- بوسماحة، (عبد الحميد): **الموروث الشعبي في روايات عبد الحميد بن هدوقة**، دار السبيل الجزائر 2007
- الجوهري (محمد)، **علم الفلكلور دراسة في الأنتروبولوجيا الثقافية**، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، 1990،
- خورشيد، (فاروق)، **الموروث الشعبي**، دار الشروق الطبعة الأولي، لبنان، 1992،
- رشدي (أحمد صالح)، **الأدب الشعبي**، ملتزمة الطبع والنشر الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، لأصحابها حسن محمد وأولاده 9 شارع عدلي باشا القاهرة، 1971،
- عبد الله(محمد عبد الرحمن): **التوطين و التنمية في المجتمعات الصحراوية**، دار المعرفة الجامـــــعية، 1991،
- العيد (محمد بلقاسم)، **تأملات في الفكر والثقافة**، مطبعة قطيف شوقي قفصة ،2004،
- المرزوقي، (محمد)، **الأدب الشعبي في تونس**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1967،
- نصار (حسين)، **الشعر الشعبي العربي**، الطبعة الأولي، منشورات اقرأ، مصر، 1980،
- تيمور (أحمد يوسف)، **جمع وتسجيل وتدوين الأغاني الشعبية**، مجلّة التراث الشّعبي، بغداد، العدد، 3-1977/4